المبحث الأوّل

الصوائت وشيوعها في اللغة العربيَّة وأهمِّيَّتها

المطلب الأوَّل:

❖ **الصوائت:**

الصوائت جمع صائت، والصائت: هو اسم فاعل من صاتَ، أي: أحدث صوتاً، وأصات الشيء: جعله يحدث صوتا، وأصات به: حمل إليه خبراً سيِّئاً.

وفي **الاصطلاح**: هو الصوت المجهور الذي يخرج مع الهواء عند النطق به على شكل مستمرّ من الحلق والفم، مع تغْيير يسير لوضع اللّسان ومجرى الفم وشكله أحياناً، غير أنَّه لا يتعرَّض لتدخُّل الأعضاء الصوتيَّة الأخرى تدخُّلاً يمنع خُرُوجه أو يسبِّب فيه احتكاكاً مسموعاً[1]، فيكون النطق بالصائت دون عوائق ظاهرة.

أو هي الأصوات التي يندفع الهواء عند النطق بها، فيُخْلَى سبيل الهواء أثناء النطق بها، وذلك عند خروجه من الرئتين مرورا بالحنجرة، ثمَّ يتَّخذ مجراه في الحلق والفم في ممرٍّ ليس فيه حوائل تعترضه فتضيق مجراه كما يحدث مع الأصوات الرخوة، أو تحتبس النفس ولا تسمح له بالمرور كما يحدث مع الأصوات الشديدة. فالصفة التي تختص بها الصوائت هي كيفيَّة مرور الهواء في الحلق والفم وخلوِّ مجراه من حوائل وموانع[2]، فالصوت الصائت لا يعترض مجرى النفس عند نطقه سدٌّ أو تضييق -يمكن الصياح بها-، وقد أطلق ابن سينا تسمية "المصوتات" على الصوائت وهذا المصطلح لا يزال متداولاً إلى

---

(١) ينظر: في الأصوات اللغوية- دِراسة في أصوات المدّ العربية: ٢٤.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٢٩.

يومنا هذا عند بعض الدارسين العرب[1].

وتُسمَّى كذلك أصوات علّة، ومدِّيَّة، وجوفيَّة وهوائيَّة؛ لأنَّها لا أحياز لها كسائر الحروف التي لها أحياز، وإنَّما تخرج من هواء الجوف فسميَّت مرة جوفا ومرة هوائية وسميت ضعيفة لانتقالها من حال إلى حال عند التصرف باعتلال[2]، وتكون هذه الأصوات صائتة إذا سكنت وجانست الحركة السابقة لها، كقولنا: بَاع، يِبيع، يقُول، فكل من الألف، والياء، والواو، وردت ساكنة بعد حركة من جنسها، أما الألف فلا تكون إلا صائتاً طويلاً، أي: لا يكون إلا ساكناً مفتوح ما قبله، فهي بعكس الواو والياء، اللذين يتخذان في حالات معينة شكل الصوامت، فالواو، في قولنا مثلا: وَلَد، يَوم، والياء في قولنا: يَلبَسُ، يُسافر، بَيْتٌ.

وفي اللُّغة العربية في لهجاتها المختلفة ثمانية عشر صائتاً من حيث النطق، ولكن من حيث الوظيفة لها ستَّة صوائت فقط، ثلاثة قصيرة وثلاثة طويلة، يقول الدكتور كمال بشر: «فالكلام كله مُنصبٌّ على حركات العربية الفصيحة الخالية من الألوان اللهجية»[3]؛ لأنَّ الصوائت المتفرِّعة عن الصوائت الستَّة هي مجرَّد نغمات، لا أثَر لها في الدلالة ولا في الوظيفة، وسنتناول هذه الصوائت الستَّة فيما يأتي:

أ- **الثلاثة القصيرة** هي:

١- الفتحة كما في الفتحة التي على الباء من "بَل" وعلى النون من "نَعْبُدُ" وعلى الراء من "رَبِّ".

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٤.

(٢) ينظر: العين: ٦٤/١، ولسان العرب: ٣.

(٣) علم الأصوات، كمال بشر: ٤٤٦.

٢- الكسرة كما في الكسرة التي تحت الباء من "بِسْمِ اللهِ" والتي تحت الراء من "غَيْرِ" والتي تحت الجيم في "الجِنَّةِ".

٣- الضمة كما الضمَّة التي على الدال في "الْحَمْدُ" والتي على الدال والهاء في "لَدُنْهُ" والتي على القاف في "قُلْ".

ب- **الثلاثة الطويلة** -أصوات مد- وهي:

١- الألف، أو الفتحة الطويلة كما في "قَالَ" و"النَّاس" و"حَاشَا".

٢- الياء المدِّيَّة أو الكسرة الطويلة وهي الساكنة ومكسور ما قبلها كما في "قِيْلَ" و"الزِّيْنَة" و"فِيْ".

٣- الواو المدِّيَّة أو الضمة الطويلة وهي الساكنة ومضموم ما قبلها كما في "يَقُوْلُ" و"نُور" و"جُوْع".

والملحظ أنَّ الصوائت الطويلة والقصيرة مرتبطة ببعضها، قال ابن جنِّيٍّ: «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدِّ واللين وهي: الألف والواو والياء، فكما أنَّ هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهي: الفتحة والكسرة والضمَّة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة: الألف الصغيرة، والكسرة: الياء الصغيرة، والضمَّة: الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة»[(١)] والدليل على صحة رأي ابن جني أنَّ الحركات إذا أشبعتها أصبحت حروفاً، فحركة الفتحة إذا أشبعتها ومددتها أصبحت ألفاً، وحركة الكسرة إذا أشبعتها ومددتها أصبحت ياءً، وحركة الضمة إذا أشبعتها ومددتها أصبحت واواً.

---

(١) سر صناعة الاعراب: ١٩/١، وينظر: التحديد في الإتقان والتجويد: ١٠٩.

فكأنَّ ابن جنِّيٍّ يشير بذلك إلى التفاوت في كمية النطق ونوعيته، فالألف في حقيقتها هي فتحة ممدودة، والياء هي كسرة ممدودة، والواو هي ضمَّة ممدودة، والعكس بالعكس.

❖ خصائص الصوائت:

إنَّ حرِّيَّة مرور الهواء أثناء النطق بالصوائت أعطاها مجموعة من الخصائص والمميِّزات أهمُّها:

١- **الوضوح**: تتَّسم الصوائت بالوضوح التامِّ بحيث لا تخفى عند النطق، وتسمع بكامل صفاتها[(١)]، وذلك يعود لاتصافها بالجهر، فالأصوات المجْهورة أوضح في السَّمع من الأصوات المهموسة، وكذلك لسعة مخرجها، وقابليَّتها للمدّ، ولاجتماع هذه الميزات الصوتيَّة فيها فضلاً عن سهولة نُطقها -كما مرَّ في التَّعريف السَّابق- جَعَلَها أيسر الحروف وأسهلها على الجهاز النطقي للمتكلم باللغة، الَّذي يميل بطبْعه إلى الاقتصاد في المجهود العضَلي، وتلمس أسهل السُّبُل مع الوُصُول إلى ما يهْدف إليْه من إبراز المعاني، وإيصالها إلى المتحدِّثين معه بهذه اللُّغة؛ ولمَّا كانت متصاحبة مع هواء النَّفس الخارج من الجوف، امتازت بميزة الوضوح السَّمعي؛ إذ تسمع من مسافة عندها قد تخفى الأصوات الصَّحيحة أو يُخطأ في تمييزها، وهذه الميزة للصوائت دون الصوامت، وإنَّما أتتْها من قبيل عدم الاحتِكاك الَّذي تتميَّز به عند النُّطق بها ممَّا جعلها أصواتاً موسيقيَّة منتظِمة قابلة للقِياس، خالية من الضَّوضاء، لها القدرة على الاستِمْرار، وهي بهذا تختلِف عن الصوامت الَّتي هي عبارة عن ضوْضاء

(١) ينظر: في الأصوات اللغوية- دِراسة في أصوات المدّ العربية: ٣-٤.

ناتجة عن الاحتِكاك[1]، فهي أسهل وأوْضح من الحروف الصوامت -السَّاكنة الصحيحة-، لكنَّ الألف تمتاز عن بين الواو والياء بأنَّها لا بد من أن تكون تابعة لما قبلها بالتفخيم والاستعلاء والاستفال ونحو ذلك، وأنَّ الواو والياء قد لا تتبعان ما قبلهما[2].

٢- **الجهر**: تتَّصف الصوائت بالجهر دائما، وهذه الصفة تشاركها فيها بعض الصوامت وليس كلُّها، فميزة الصوائت أن لا تكون إلا مجهورة، وأمَّا الصوامت فمنها ما يكون مجهوراً ومنها ما يكون مهموساً، وقد عدَّ سيبويه الصوائت بأنَّها «غير مهموسة وهي حروف مدٍّ ولين ومخارجها متسعة لهواء الصوت وليس من الحروف أوسع مخارج منها ولا أمد للصوت، فإذا وقعت عندها لم تضمه بشفة ولا لسان ولا حلق كضم غيرها»[3]، وفي قول سيبويه حقيقة كون هذه الأصوات مجهورة.

٣- **المخرج**: عدم اختصاصها بمخرج معيَّن، فلا يجد الناطق أثراً للاحتكاك في إصدار هذه الأصوات، وأنَّ قوَّتها التصويتيَّة كان بسبب من خروج الهواء وهذه هي الميزة الأساسيَّة التي تمتاز بها أصوات المد[4]، فالألف حرف لين اتسع مخرجه لهواء الصوت، فكان مخرجه أشدَّ اتِّاعاً من مخرج الياء والواو، لأنَّك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك[5]، فأقصى

---

(١) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٢٦.

(٢) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٥٩.

(٣) الكتاب: ٢/١٦٧، ٣/٤٦٩، ٤/٧٥-١٩٣، إذ فصَّل في الياء والواو شبهي الصوائت.

(٤) ينظر: تهذيب اللغة: ١/٥١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢.

ما يصل إليه اللسان متجها نحو الحنك الأعلى بحيث لا يحدث الهواء المار بينهما أيَّ نوع من الحفيف، يُعَدُّ موضعا مضبوطا بين أصوات اللين، وهو ما يشبه الكسرة الرقيقة في اللغة العربية حين يكون قصيراً، ويشبه ما يسمَّى بياء المدِّ حين يكون طويلاً، وإذا هبط اللسان إلى «أقصى ما يمكن أن يصل إليه في الفم، بحيث يستوي في قاع الفم، مع انحراف قليل في اقصى اللسان نحو أقصى الحنك، ما يشبه الفتحة المفخمة في اللغة العربية حين يكون قصيرا، ويشبه ما يسمى بألف المد المفخمة حين يكون طويلاً، أمَّا الواو أو الضمة فتحدث بأن يصعد أقصى اللسان نحو الحنك الأعلى، ليكون الفراغ بينها من لسعة، بحيث لا يحدث الهواء أي نوع من الحفيف[1]، ومن هذا المنطلق قسَّم سيبويه أصوات المدِّ إلى ضربين:

أ – مرتفعة وتضمّ الواو والياء والضمَّة والكسرة.

ب– مستفلة وتضم الألف والفتحة، مميز بين النوعين بفكرة الاستعلاء والاستفال، المرتبطة أساسا عند اللغويين العرب بارتفاع اللسان وانحطاطه داخل الفم أثناء النطق بالأصوات اللغوية[2].

٤– **الازدواجيَّة:** فالواو والياء تتَّصفان بازدواجيَّة الخصائص والوظيفة ويختلفان، عن الألف بأنَّ الألف لا تكون إلا ساكنة مفتوح ما قبلها، فلا تتغيَّر عن هذا الحال، ولو حرَّكت صارت صوتاً آخر غير الألف، وأمَّا الواو والياء فإنَّهما تحرَّكان ولا تتغيَّران[3].

---

(١) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٧–٩.

(٢) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٧–٨.

(٣) ينظر: الأصوات اللغوية: ٣١.

٥- **الشيوع**: تشيع في اللغات، فلا تخلو لغة من الصوائت، فهي أكثر تردُّداً في النطق من الحروف الصوامت -السَّاكنة الصحيحة-[١].

٦- **النطق**: لكلِّ لغة طريقة في نطق الصوائت، فأيَّ انحراف عن أصول النطق بها يبعد المتكلم عن الطريقة المألوفة بين أهل هذه اللغة[٢].

المطلب الثاني: شيوع الصوائت في العربيَّة وأهمِّيَّتها:

❖ شيوع الصوائت في العربيَّة:

إنَّ الصوائت في اللُّغة العربيَّة قليلة في العدد، بخلاف الصوامت التي تزيد على ثلاثة أضعاف الصوائت إلا أنَّ الصوائت تضاهي الصوامت في الشيوع والاستعمال، وإنَّ لكثرة ورود الصوائت في الكلام وارتفاع نسبة شيوعها يعود لأسباب عديدة منها ما يتعلَّق بطبيعة هذه الأصوات نفسها، ومنها ما يتعلَّق بنظام اللغة العربيَّة، ومنها ما يتعلَّق بطبيعة بناء الكلمات، وهذا الأخير متفرِّع عن نظام اللغة، وسنذكر فيما يأتي أهمَّ تلك الأسباب:

أ – طبيعة الصوت:

إنَّ ممَّا يحدِّد نسبة ورود الصوت في الكلام هو طبيعة الصوت نفسه، وهذا يتبيَّن فيما يأتي:

١- **الجهر**: تقدَّم في الفصل الثاني أنَّ الجهر من الصفات التي لها ضدٌّ وهو الهمس، والجهر يضفي على الصوت الصوتَ المجهور أكثر شيوعاً، «فالكثرة الغالبة من الأصوات اللغوية في اللغات كلها مجهورة، ومِن الطبيعي أن تكونَ كذلك، وإلا فقدتِ اللغة عنصرها الموسـيقيِّ ورَنينها

(١) ينظر: في الأصوات اللغوية- دِراسة في أصوات المدّ العربية: ٣-٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣-٤.

الخاصَّ الذي نميِّز به الكلام من الصمتِ والجهْر والهمس»[1]، فالأصوات المجهورة هي التي تحافظ على تنغيم اللغة، والصوائت هي مِن الأصوات المجهورة، فلمَّا كانتِ الصوائت أصواتاً مرنة انطلاقية ملساء، نجد أنَّ القرآن الكريم يكثر في فواصله الصوائت الطويلة، وخاصَّة الألف «وهذه الألف تملك قيمةً تنغيمية وتطريبية أكثرَ مِن الواو أو الياء، فهي ممدودةٌ ومخرجها مِن أقْصَى الحلْق، وتصل ذبذبتها إلى أكثرَ مِن "٨٠٠" ذبذبة في الثانية، أي: إنَّها تحتاج إلى ضِعفي زمن الحرف الصحيح الساكن، وتُعادل أكثر مِن ضعفي ذبذبات ذينك الحرفَيْن، وتقف قبالتهما في أقْصى مكان مِن طبقة الصوت وهما أدناه»[2]، ويقدِّم صاحب النص مثالاً عن تردُّد صوت الألِف في القرآن الكريم مِن خلال سورة الشمس: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَىٰهَا﴾[3].

فهذا الصوت -أي: صوت الألف- يتردَّد في فواصل آيات هذه السورة الكريمة، بنغمِه وإيقاعه، فهو النَّغمة الموسيقيَّة الأكثر تردُّداً.

---

(١) الأصوات اللغوية: ٢٢.

(٢) قواعد تشكِّل النغم في موسيقى القرآن- بحث: ١٥٠.

(٣) سورة الشمس: ١-١٥.

٢- **سهولة النطق**: فكلَّما خفَّ الصوت على اللسان وسهل نطقه كلَّما كثر استعماله، وتكرَّر وروده في الكلام، وقد سبق الخليل إلى إثبات ذلك، فتوصَّل إلى أنَّ أكثر الأصوات الصامتة دَوراناً في العربية، هي أصوات الذلاقة: -ر، ل، ن، ف، ب، م-، فهي الأصوات التي يُبنى منها الكلامُ العربي، والأكثر شيوعاً فيه، والسبب هو «لَّما ذلقتِ الحروف الستَّة ومَذَلَ بهنَّ اللسان وسهلتْ عليه في المنطق، كثرت في أبنية الكلام، فليس شيءٌ مِن بناء الخماسي التامِّ يعرَى منها أو مِن بعضها»[1]، ولم يكن ما ذكره الخليل مجرَّد اجتهاد أو تخمين، بل هو نتيجة على استقراء دقيق للغة العربيَّة، يؤكِّد هذا ما توصَّلتْ إليه الدراسات الحاسوبيَّة الحديثة؛ يقول الدكتور أحمد محمد قدُّور: «أثبتت الدِّراسات الحاسوبية لجذور الصحاح ولسان العرب وتاج العروس أنَّ أكثر الحروف دوراناً في العربية هي: الراء واللام والنون والباء والميم، ثمَّ العين والقاف والدال والفاء والسين، ويتبين مِن هذه النتيجة العلمية الدقيقة أنَّ حروف الذلاقة التي اعتدَّها الخليل، وهي: (اللام والنون، والراء والفاء، والباء والميم)، جاءت أولاً ما عدا الفاء، أمَّا من حيثُ تشكل هذه الحروف في الأبنية، فقد أظهرتِ الدراسات الحاسوبيَّة أنَّ أكثر الحروف تردُّداً في الرباعي والخماسي هي حروف الذَّلاقة، إضافةً إلى شيوعها في الثُّنائي والثلاثي، مما يؤيِّد فكرة كثرتها في الكلام عامَّة»[2]، إذن خفَّة الأصواتَ وسهولتها في النُّطق سبب رئيس في ارتفاع نسبة شيوعها وانتشارها في الكلام، فالعربي بطبعه كان يميل إلى السهولة والتيسير.

---

(١) المصدر نفسه: ١/١٧٤.

(٢) أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة العين: ٦٢.

٣- **الخواصُّ الفيزيائيَّة:** إنَّ الخواصَّ الفيزيائيَّة للأصوات أثر في استعمالها في الكلام، وكثرة ورودها أو قلَّته، فالصوائت بما تحمله من الخصائصِ الفيزيائيَّة الواضحة والتي لا تُوجَد في الصوامت؛ نتيجةَ اتِّساع مخرجها وعلوِّ رَنينها وخفَّتها وسهولتها في النطق، بالإضافةِ إلى أنَّ «تردُّدات هذه الأصوات متقارِبة فيما بينها أكثر مِن غيرها من الصوامِت، مما جعل الانطباع السَّمْعي لها متقارباً أيضاً، وذلك راجِع إلى أوضاعها التشريحيَّة الحرَّة المتقاربة التي لا تملك نقاط "ارتكاز" مِن قبيل ما تملكه الصوامتُ التي يؤلِّف الاحتكاك فيها نقاط ارتكاز تؤدي إلى الاستقرار»[(١)]، فالخواص الصَّوتية للصوائت جدُّ متقاربة.

وبناءً عليه، فإنَّ الأصوات التي يكثر دورانها، تختصُّ بمعايير وخواص صوتيَّة تميزها عن غيرها مِن الأصوات، فبعض أصواتِ الذلاقة أوضحُ في السمع من الصوائت، فاللام والنون والميم أصوات عالية النسبة في الوضوح السَّمعي، وتكاد تشبه أصوات اللين في هذه الصِّفة[(٢)]، وبالتالي أَلْحَقوها بأشباه الصوائِت لوضوحها السَّمْعي، ومِن خواصها كذلك خفَّتها في النطق، والذلاقة كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس هي: «القُدرة على الانطلاق في الكلام بالعربية دون تعثُّر أو تلعثُم»[(٣)]، مما يجعلها كذلك تشبه الصوائت؛ لتكون من الصوامت الأكثر دوراناً في العربية.

ب- النظام اللغويُّ:

إنَّ اللُّغة العربية لها نظام خاص وقواعد لا خللَ فيها، تتمتَّع بالاستقلالية

---

(١) في الأصوات اللغوية- دراسة في أصوات المد العربية: ٥٤.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية: ٧٩.

(٣) الأصوات اللغوية: ٧٩.

في بنيتها الصوتيَّة والصرفيَّة، وتحتوي على مجموعة من الصويتات التي لها علاقة وطيدة بالدَّلالة اللفظيَّة أو النحْويَّة، أو الصرفيَّة أو السياقيَّة، وسنذكر فيما يأتي أثر النظام اللغويِّ في كثرة استعمال الصوائت، ونسبة وروده في الكلام:

١- **طريقة الكلام**: إنَّ طريقة العرب في كلامهم أعطت الصوائت ميزة على الصوامت، فهم لا يبتدئون بساكن، ولا يجيزون اجتماع ساكنين إلا في حالات نادرة، وقد بيَّن ذلك مكي بن أبي طالب ذلك بقوله: «وإنَّما كان الحرف المتحرِّك في الكلام أكثرَ مِن الساكن؛ لأنَّك لا تبتدئ إلاَّ بمتحرِّك، وقد يتَّصل به حرفٌ آخر متحرِّك، وآخر بعد ذلك متحرِّك، ولا يجوز أن يُبتدَأ بساكن، ولا أن يتَّصل ساكن بساكن أبداً، إلاَّ أن يكون الأول حرفَ مدٍّ ولين، أو يكون الثاني سكِّن للوقف، وإنَّما كانت الحركة أكثرَ مِن السكون؛ للعلَّة التي ذكرنا في المتحرِّك والساكن»[(١)]، وللألِف خاصِّيَّة في أنَّها تشبه الهمزة في كثرة الاستعمال، ولكن للهمزة بداية الكلام وللألِف درَجه، وذلك لأنَّ «الألف لا تُزاد أوَّلاً لسكونها، ألا ترَى أنَّ أوائل الكلم التي يُبتدأ بها لا تكون إلاَّ متحرِّكة، ولكنَّها تزاد وحْدها ثانيةً في فاعل ومع غيرها في ساباط، وثالثة في كتاب، ورابعة في نحو سَكْرَى ومِعزى ونحوهنَّ، وخامسة في نحو حِلبْلاب وحَنْبَطى، وسادسة في قَبَعْثَرى، وهي أجدر بالزِّيادة مِن الهمزة؛ لأنَّها تكثر ككثرتها ولا تكاد تخلو كلمة مِن زيادة بعضها فيها وهي الفتْحة»[(٢)]، فهي تتردَّد بكثرةٍ في الكلام، فلا تكاد تخلو كلمةٌ منها، وكذلك الفتحةُ في دورانها،

---

(١) المصدر نفسه: ٢٧.

(٢) التكملة- الجزء الثاني مِن الإيضاح: ٢٣٤.

كما أنَّ ائتلاف الأصوات لا يتعلّق بطبيعة الحروف في حدّ ذاتها، وإنّما يتعلّق بالصوائت القصيرة أيضاً، وذلك من نحو الانتقال من الضمّة إلى الكسرة أو العكس، ومن نحو وجود أربع حركات لوازم في الكلمة الواحدة، أو من نحو التوافق بين الفتحة والحروف الحلقيّة وغيرها، فهذه الأمور نابعة من طريقة العرب في كلامهم، وهي تقوم في الأساس على استحباب الصائت، لما يضفيه على الكلام من سهولة وجرس، كما تقدَّم.

٢- **الربط بين الأصوات الصامتة:** الصوائت التي تربط بين الصوامت في السلسلة الكلاميَّة، وهذا ما يجعلها تكون في المقدمة، وهذا أمر يجعل الصوامت مفتقرة إلى الصوائت في البناء، وهي لا تخلو بحال مِن وجود الصوائت، وهذا ما يعطي الصوائت كثرة في شيوع وانتشارا في الاستعمال، وقد بيَّن ذلك مكي بن أبي طالب فقال: «فإنَّ الكلام إنّما جِيء به لتفهم المعاني التي هي نفس المتكلِّم وبالحرَكات واختلافها تُفهم المعاني، فهي منوطةٌ بالكلام مرتبطة به ونيطت به؛ إذ به نفرِّق بين المعاني التي من أجلها جِيء بالكلام»[(١)]، فإن كانتِ الصوائت هي التي تُحدِّد الكثيرَ مِن المعاني في اللغة العربية، فإنَّ العرب بنوا كلامَهم على متحرِّك وساكن، «والحرف المتحرِّك في كلام العرَب أكثر مِن الساكِن، كما أنَّ الحركة أكثرُ مِن الساكن»[(٢)]، إذ من النادِر أن تجد صامتاً لا يتبعه صائِت، فهي معادلةٌ حسابية، طرَفاها الصامت والصائت، والصامِت لا يُنطق إلاَّ بوجود الصائِت فهو مضطرٌّ إليه ومفتقر.

---

(١) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: ٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧.

٣- **الأبنية الصرفيَّة**: الصوائت التي تؤثِّر في الأبنية، ومن خلاله نستطيع أن نميِّز بين بناء وآخر، وذكر هذا سيبويه فقال: «فأما الأحرف الثلاثة -الصوائت الطويلة-، فإنَّهنَّ يكثرن في كل موضع، ولا يخلو منهنَّ حرف -يعني كلمة- أو مِن بعضهن، ثم ليس شيءٌ مِن الزوائد -الصوائت القصيرة- يعدل كثرتهن في الكلام، هن لكل مدّ، ومنهنَّ كلّ حركة، وهن في كل جميع -كل جمع-، وبالياء الإضافة، والتصغير، وبالألف التأنيث، وكثرتهنَّ في الكلام وتمكنهنَّ فيه زوائد أفْشَى مِن أن يُحصَى ويُدرك، فلما كُنَّ أخوات وتقاربن هذا التقارب، أجرين مجرًى واحداً»[1]، فالأبنية في اللغة العربيَّة تقوم في الأساس على الصوائت طويلة كانت أم قصيرة، وهذا ما يعطيها ارتفاع في نسبة شيوعها في الكلام، وبناءً عليه، فإنَّ الزِّيادة في الصيغ لا تكون إلاَّ بهذه الأصوات، يقول سيبويه: «وأمَّا الألف، فلا تلحق رابعة فصاعداً إلاَّ مزيدة؛ لأنَّها كثرت مزيدةً كما كثرت الهمزة أوَّلاً، فهي بمنـــزلتها أوَّلاً: ثانية وثالثة ورابعة فصاعداً، إلاَّ أن يجيء ثَبَتٌ، وهي أجدر أن تكونَ كذلك من الهمزة؛ لأنَّها تكثُر ككثرتها أوَّلاً، وأنَّه ليس في الكلام حرف إلاَّ وبعضها فيه أو بعض الياء والواو»[2]، فهذه الصوائت تقوم بوظائف مهمّة، إذ هي لا تقتصر على تحريك الحرف فحسب، وإنَّما هي تميّز بين الصيغ الصرفيّة، وذلك من نحو قولنا: " **مُكرِم** -بالكسر- و**مُكرَم** "-بالفتح-، و"**مُستثمِر** و**مُستثمَر**" كذلك ونحوهما، وهي تميّز بين بعض الكلمات في دلالاتها المعجميّة، وذلك من نحو قولنا: "**سَنة** و**سِنة**"، و"**ثَمَّ** و**ثُمِّ**"، و"**قَطر** و**قُطر**".

---

(١) الكتاب: ٤/٤٦١.

(٢) الكتاب: ٤/٤٥٣.

٤- **الوظائف النحويَّة**: لقد أدرك العلماءُ العربُ المسلمون أنَّ نِسبة الشيوع بيْن الصوائت، مِن حيث كثرة الاستعمال مرتبطة بالوظائف النحويَّة، فهم أعطوا المفاعيل لَّما كثرت أخفُّ الحرَكات وهي الفتحة، ولما قلَّ الفاعل اختير له أثْقل الحرَكات وهو الرَّفْع، حتى تقَع الزيادة في العدد مقابلة للزِّيادة في المقدار فيحصل الاعتدال[1]، فدور الصوائت في البناء النحويِّ لا غنى عنه في اللغة العربيَّة؛ إذ بها يكون ضبط الإعراب فالضمّة تدلّ على الفاعليّة والفتحة على المفعوليّة، وتوزيع الصوائِت على الوظائف يتمُّ بمعيار خِفَّة وثقل الصوت، فالضمَّة أقوى مِن الفتحة؛ لهذا أعطوها أقلَّ الوظائف، لما فيها من تكبُّد الجهد، على خلاف المفاعيل التي أعطوها أخفَّ الحركات ليسهل النطق بها مع كثرة ورودها.

❖ أهمِّيَّة الصوائت:

إنَّ الصوائت ذات أهمِّيَّة كبيرة في اللُّغة فهي متعدِّدة المقاصد، وخاصَّة في البناء اللغويِّ، فلا يمكن للغة أن تسيغني عنها، فلا يمكن تصوُّر كلمة من غير أن يكون للصوائت فيها حضور فهي التي تربط الصوامت في السلسلة الكلاميَّة، فإذا كان الكلام الإنساني ينصبُّ على عدد الصوامت، فإنَّ اللُّغة العربية لها ستَّة صوائت فقط، ثلاثة قصيرة وثلاثة طويلة، يقول الدكتور كمال بشر: «فالكلام كله مُنصبٌّ على حركاتِ العربية الفصيحة الخالية مِن الألوان اللهجية»[2]؛ وعرفت اللهجات العربيَّة صوائت أخرى متفرِّعة عن هذه الستَّة الصوائت المتفرِّعة عن الصوائت الستَّة بلغ عدده اثني عشر صائتا تضاف إلى

(١) ينظر: التفسير الكبير- مفاتيح الغيب: ٦١/١.

(٢) علم الأصوات، كمال بشر: ٤٤٦.

هذه الستَّة فيكون المجموع ثمانية عشر صائتا، لكن ليس لها أثَر في الدلالة ولا في الوظيفة، فتكون هذه الاثني عشر الزائدة هي مجرَّد نغمات، وذكر الدكتور إبراهيم أنيس: «أنَّ العِبرة ليست بالعدد، وإنَّما بنسبة شيوع كلٍّ من النوعين في الكلام»[1]، فاستعمال الصوت هو الذي يحدِّد شيوعه وكثرة وروده في الكلام، وهذا يدلُّ على أنَّ القلة في العدد للأصوات لا تَعني الفقر في العمل، وهذا يتجلَّى مع الصوائت في اللغة العربية؛ إذ نِسب دورانها يعادل مجموع نِسَب الصوامت.

وقُدِّمت دراساتٌ أخرى في بعض سور القرآن الكريم، فوجد أنَّ «في تحليل سريع لدور الحركات الستِّ مع الحروف الثمانية والعشرين "نسبتها إلى مجموع الأصوات نحو ١٧,٥%"، نجد أنَّ سورة الفاتحة -مثلاً- تحتوي من الحروف على "١٢٠" حرفاً، ومن الحرَكات على "٧٨" حركة؛ أي: إنَّ نِسبة الحركات المستعملة في السورة إلى مجموع حروفها وحركاتها نحو ٤٠%»[2]، وفي عملٍ آخر يشير صاحب النص، «وبتحليل آيات السورة آيةً آيَة لم تقلَّ هذه النسبة في أيَّة آية عن "٣٧%"، أي: إنَّ قيمة الحرَكات في بنات اللُّغة أكثرُ مِن ضعف نِسبتها بين الأصوات المجرَّدة، وأنَّها تسهم في ألفاظِ اللغة بأكثرَ مِن الثلث»[3]، وقد لحَظ المحدَثون ذلك، فقد أجرى المستشرق فليش إحصاءً بسيطاً على آيات مِن سورة البقرة، تبيَّن من خلاله تكرُّر الفتحة "١١٠" مرَّات، والكسرة "٤٢" مرَّة، والضمَّة "٥٠" مرَّة، والنسبة لورود كلٍّ منها، الفتحة: "٥٤,٤% "، والكسرة: "٢٠,٨%"،

(١) الأصوات اللغوية: ٢٢.

(٢) المختصر في أصوات اللغة العربية- دراسة نظرية تطبيقية: ١٤١.

(٣) المصدر نفسه: ١٤١.

والضمَّة: "٢٤,٨%"[1]، وهذا يتوافَق ميل العرَب إلى استعمال الفتحة في كلامهم؛ لأنَّها أخفُّ الصوائت القصيرة، وهذا ما تؤكِّده اللسانيات الحاسوبيَّة؛ إذ يشير الدكتور أحمد محمد قدُّور بقوله: «أما مِن حيث دوران هذه الأصوات في الكلام، فقد توصَّل علماء التعمية واستخراج المعمَّى إلى تحديدِ مراتب دوران الحروف مِن حيثُ الكثرة والقلَّة في اللِّسان، وأجمع هؤلاء على أنَّ الحروف "المصوتة" هي أكثرُ الحروف في كلِّ لِسان، أمَّا الألف فهي أكثرها في العربية»[2]، ومسألة شيوع صائتَي "**الفتْحة**"، و"**الألِف**"، مسألة تتعلَّق بالنظام الصوتيِّ العامِّ للغة، فهي أكثر من حيث عموم اللغة، وليس المقصود منها أن تكون أكثر من غيرها في كلِّ عبارة، وجملة، وتركيب، فإنَّ هذا أمر مرتبط بالبناء، والتركيب الخاصِّ بالجملة، فقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ** ﴾[3]، لا يخفى أنَّ الضمَّة فيه أكثر من الفتحة والكسرة، وكذلك قوله عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴾[4]، لا يخفى أنَّ الكسرة فيه أكثر من الفتحة والضمَّة، إلا أنَّ هذا لا يعدُّ عامٌّ في البناء الصوتيِّ للُّغة العربيَّة، بل تبقى الفتحة والألف هما الأكثر استعمالا من حيث عموم اللغة، وسنبيِّن فيما يأتي الأهمِّيَّة الصوائت في البناء اللغويِّ:

١- الصائت هو الَّذي يخرج الصامت من سكونه، ويساعِد الصوامت على الاتِّصال ببعضها البعض؛ لأنَّه يعدُّ القنطرة التي تربط الصوامتَ في السلسلة الكلاميَّة، فمِن قواعد التلفُّظ في العربية: عدم الابتداء بالساكِن، ولا يُبتدأ

(١) العربية الفصحى- نحو بناء لُغوي جديد: ٣٦.

(٢) أصالة عِلم الأصوات عند الخليل مِن خلال مقدمة كتاب العين: ٦٢.

(٣) سورة القمر: ٥٢.

(٤) سورة القمر: ٤٧.

بالصائت، ولكن الصامت لا ينطق إلاَّ إذا كانت الدفعة والدفْقة من الصائت، ولولاه لكانتِ الصوامت ساكنةً لا نفع فيها، فهو يمثِّل نواةَ المقطع، الذي يعتبر أصغرَ وحدة صوتيَّة في الكلام، ولما كانتِ الصوائت ضرورةً في بناء السلسلة الكلاميَّة، أصبحت أكثر شيوعاً ودوراناً في الكلام، فمنها كل الصيغ الصرفيَّة المختلفة، والوفْرة في تعدُّد المعاني، فيَكفي لتغييرِ صائت فيتغير المعنَى، فخواصها الصوتيَّة تساعدها على البروز والدوران.

٢- الصائت هو الذي يمنح الكلامَ هذا التنوُّع؛ إذ يغلب على الصوائت طابع التعاقُب بالتتابع أو التآلف، وذلك من موقع واحِد مِن عناصر الصيغة الإفراديَّة، بداية أو وسطاً، أو نهاية، وقد جعل المختصُّون لكلٍّ موقع مجالاً، فقالوا البداية للغة، والوسط للصَّرْف، والنهاية للنحو، وفي كلِّ موقِع ثلاث حالات، تفترضها المعنى، وتحكمها الدلالة[1]، مما يجعل الصائتَ يستأثر بالشيوع وبكثرة الدوران؛ لأنَّ مواقعه هي التي تُعطيه هذا الغِنى والثراء.

٣- والخطأ يكثُر فيه، فلو تتبعْنا اللحن الَّذي مسَّ اللغة -وما زال يمسها- سنجد أنَّه يقَع على الصائت؛ لذلك كان الصائت مِن الأسس الهامَّة لتعلُّم أية لُغة وتأديتها بقواعدها التي تحكمها، فالصائت في اللغة العربية يتغيَّر بتغيُّر أواخر الكلمات، ويتغيَّر بتغيُّر الصيغة.

٤- للصوائت أهمِّيَّة كبرى في إخصابِ اللغة وإثراءها في صِيغها المختلفة،

---

(١) تداعيات التعاقب والاستبدال الصوتي في تثليث عناصر المباني المعجمية الإفرادية- بحث: ١٢٦.

فاللُّغة العربية غنية بتنوُّعها؛ لأنَّ «الصوامت تعمل في البناء والصوائت تعمل في التنويع»[1]، فهي تلون الكلمة من خلال المواقِع التي تتَّخذها، فتعمل في جميعِ المباني؛ «لأنَّ الأصل في الدَّلالة على المعاني الطارِئة على الأسماء أن تكون بحروف المدِّ واللين وأبعاضِها، وهي الحرَكات الثلاث»[2]، وهذه الوظيفة التي تقوم بها الصوائت يُعطيها هذا الشيوع، خاصَّة إنَّ الصوائت القصيرة -الحركات- إذ على الرغم من محدوديّة عددها كان لها هذا الدور المهمّ بالنظر إلى وظيفتها المشار إليها، وإن بدت في الظاهر أنها شيء تابع أو ملحق، وذلك بسبب من هامشيتها في مستوى الخطّ أو الكتابة، أي أنّها عبارة عن رموز تحتلّ مكانا فوق الحرف أو تحته ولا تتبعه مثلما تقرّه سلسلة الكلام المنطوقة. لهذا وحتى نعطي الحركات قيمتها الحقيقيّة لا بدّ أن نميّز بشكل دقيق بين المنطوق والمكتوب.

(١) المصدر نفسه: ١٢٨.

(٢) بدائع الفوائد: ٤٨/١.